كلمة كلية الآداب

في حفل تأبين المرحوم الدكتور عادل العوا

الدكتور سمير إبراهيم حسن

أيتها السيدات أيها السادة

حين نلتمس البلاغة في الحديث عن بعض الأشخاص، الأحياء أو الأموات، تحضر الذهن صور بلاغية كثيرة. وبصدد بعضهم القليل نجد أن الواقع أبلغ وأغنى. هكذا الأستاذ الجليل الراحل، وبعض جيله من المعلمين المربين، أطال الله عمر من بقي منهم.

لا إخالنا اليوم سنودع نهائياً أستاذنا الدكتور، كما هو معروف في تكريم الناس بالتأبين لمن فقدوه من وجهائهم بالموت. فهذا التأبين لا يستطيع أن يعني الانقطاع، فهناك صلات فكرية وأخلاقية ستستمر، ألم يكن هو مدرس «الأخلاق» و«من الشرف إلى الكرامة» لمئات، بل لآلاف من الطلاب السوريين والعرب في قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية في كلية الآداب في جامعة دمشق؟.

لقد حزنا على موت الأستاذ بعواطفنا وعرفاننا بالجميل، ووارياه الثرى، وودعناه، ولكن جزءاً من عقلنا ووعينا يأبى الوداع، وهذه حال البشر مع كل من ترك أثراً فكرياً وثقافياً وأخلاقياً طيباً.

والأستاذ الراحل هو من النماذج القليلة من المعلمين والمربين المثقفين المنسجمين فكراً وسلوكاً، فقد كان يعلم الأخلاق التي يتمثلها ويبث القيم والمفاهيم والرؤى والمثل التي يطبقها على نفسه. وهو أيضاً من ذلك النوع من المفكرين الذين لم تستغرقهم هموم الحياة اليومية، فلم نسمعه يوماً يجهر بالشكوى. لقد التصق بالجامعة لأكثر من نصف قرن يعلم ويترجم ويؤلف ولم

يفكر بالمغادرة رغم كل الإغراءات التي كانت في متناول يده. ومثل هؤلاء لا يمكن أن يضاموا في سورية المعاصرة، فتوج جهده وعطاؤه بالتكريم الجليل من السيد رئيس الجمهورية بشار الأسد.....

أظن أن مثل هؤلاء الرجال لا يرحلون تماماً. إنهم يستمرون فينا ومعنا بفكرهم وأخلاقهم ووطنيتهم ويستمرون في ذاكرة الجامعة والوطن، ويشرقون كل يوم في قاعات الدرس والمحاضرات والمكتبات.

لم يشتغل الأستاذ الراحل بالأحداث الآنية، وهذا هو شأن محبي الحكمة «الفلسفة» بمعناها الأصيل كما كان يفهمه. لقد كانت اهتماماته عامة فيما كتبه وفيما نقله وترجمه. ولا أذكر وبعضنا في غمرة الحماس الإيديولوجي اليساري العتيد، والبعض الآخر في تدرجات اليمين المعتبرة، أننا استطعنا أن نجعله يميل إلى أحد الأطراف، أو أن يقف موقفاً آنياً من صراعاتنا الفكرية، بل كان دائماً يقف ذلك الموقف الإنساني والوطني المتسامح والشامل. قسم منا عدّ ذلك موقفاً سياسياً سلبياً منه، ولكن الأستاذ كان يعدّه الموقف الفلسفي الأصيل، ولو اختلفنا معه حول وظيفة الفلسفة ودورها.

ولكن لابد أن نستوعب أن الأستاذ كان يوماً عميداً لكل كلية الآداب ورئيساً لكل قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية، وكان دائماً أستاذاً لكل طلاب هذا القسم، لذلك فضل أن يبقى كالشجرة المورقة يستظل بها الجميع. ولذلك تجد احترامه من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. لقد كان أستاذاً توافقياً للكل، ويتوافق عليه الكل. كان يحاول في الطريق إلى الحقيقة بالمعنى الفلسفي الذي يفهمه لا في الطريق إلى اليمين أو اليسار ولا إلى ما بينهما بالمعنى السياسي. كيف لا وهو يرى «أن النزاع العقائدي آيل ذات يوم إلى اتساق أعلى». تلك هي حقيقة الأستاذ الراحل التي قد لا أتفق معها ولكني أنحني احتراماً لصاحبها وأقدر مع كل كلية الآداب وطلاب قسم الدراسات

الفلسفية والاجتماعية وأساتذته الجهدَ المعرفي والتعليمي والتربوي الذي بذله حتى آخر لحظة من حياته التي توجها بكتابه عن «**التسامح: من العنف إلى الحوار**» وكانت آخر فكرة كتبها بعد ما مارسها وآمن بها طويلاً: «وغير خاف أن من شروط الحوار قبول التعددية وحق الاختلاف والحرية والندية واستبدال التفاهم المعتقل عن طريق الفكر واللسان بالصراع والتغلب بالظفر والمخلب والناب».

قيل إن المعلم شمعة تذوب لتنير الدروب المظلمة، والأصح أن يقال ونحن أمام معلم حقيقي، إن المعلم هو الضوء ذاته. فضوء الشمعة ينتهي بانتهاء المادة التي تتكون منها الشمعة، وليس هكذا المعلم الذي يترك مؤلفات وآثاراً فكرية وأخلاقية، فهو يستمر بالإنارة بعد فناء المادة.

أيها الأخوة:

وإذ نتبصر فإن غياب مثل هؤلاء لا يلغي حضورهم، إن مثلهم وإن ماتوا فسيحيون. وإذ نرى الأستاذ الراحل على هذا النحو، فهو حاضر حضوراً مكثفاً معنا بحيث يعجز الموت عن انتزاعه منا ومن الوطن ومن الجامعة ومن عقول الأجيال التي أسهم في تكوين رؤيتها. إنها لحظة الموت التي تكثف حضور الحياة. فالجسد يتوارى، والحزن يتوارى، ويستمر الفكر. سيذهب من القلب حزن الفراق، ولكن تبقى في العقل وفي النفس وفي الفكر قوة الحضور.

لقد شغل الفلاسفة يوماً بالبحث عن الديمومة وإكسير الحياة، واعتقد أخلافهم بأنهم أخفقوا. ولكن ألسنا واجدين سر الحياة هنا في حياة الفكر واستمرارها؟ وإذا كنا نريد الحياة ونحب الاستمرار فيها فليسأل كل منا نفسه ماذا فعل ليستمر. لعل موت المفكرين وتأبينهم محطة للتفكير في الإجابة الممكنة. وإذا أردنا أن نصعّب على الموت انتزاعنا من أحبابنا ومن حولنا فلنترك لهم من ذاتنا أثراً طيباً قابلاً للاستمرار، وطنياً وفكرياً وأخلاقياً، كما ترك

المعلمون الذين رحلوا ولم يموتوا. إنه الغياب الذي لا يلغي الحضور، بل قل إنها جدلية الغياب والحضور.

ف:

قد ترى الموت شاخصاً في حياة ودبيب الحياة في الأكفان

أيها الحضور الكريم:

إذا كانت الأربعون لفتة الذكرى، وختم الأحزان، وعتبة النسيان العميق، فإنها بصدد الأستاذ الراحل هي «صدى وقع الهنيهة بالديمومة»، فيظل المفكر والمربي فاعلاً في الأحياء وحاضراً في الدهر. إن الذي يموت هو الذي لا يترك نفوساً تتبتل بذكراه، وليس هذا حال أستاذنا الراحل الذي يصح في رحيله القول:

رب هجر بين المحبين أمسى من مدى نأيه حميم تدان

ها هنا الموت، مسترد حياة خلصت من هياكل الأبدان

لأستاذنا الراحل كل الاحترام والعرفان والتقدير، ولكم العزاء يا أهله وأصدقاءه وتلامذته ومحبيه، ولنا نحن عمادة كلية الآداب وأساتذتها وطلابها العزاء فيما تركه لنا وفينا من أفكاره الفلسفية وأخلاقه النبيلة.

والسلام عليكم